حجاجية التشبيه في خطب الجهاد
عند الإمام علي (عليه السلام)

حسين مجيد سلمان
أ.م.د. تغريد عبد الأمير الخفاجي
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

Hajjaj Analogy in the Sermons of Jihad by Imam Ali (peace be upon him)

Hussain majeed salman
Prof. Dr. Taghreed Abdul Amir Al-Khafaji

ملخص البحث

للتشبيه الأثر الكبير والواضح في تصوير الأشياء المجردة بصور حسية واقعية تنبض بالحياة قادرة على تقريب المعنى وتوضيح الصورة لدى المقابل، وزيادة على قدرة التشبيه في إضفاء سمة جمالية للخطاب تجذب القارئ فهو يحمل طاقة حجاجية إقناعية كبيرة تجعل الخطاب ينحو منحى التأثير والإقناع، من خلال جذب العقول لمعاني مغايرة للمعنى المجرد الموضوع له وذلك لتقريب الصورة، كما إن للتشبيه القدرة الكبيرة على توليد دلالة النصوص وتكوينها لدى المتلقي وبالتالي إحداث التأثير والإقناع .

ولدراسة التشبيه بصورته الحجاجية وتتبع مساره الإقناعي في الخطاب، فقد طبقته بالتحليل على نص مبارك من نصوص أهل بيت النبوة (عليهم السلام) إلا وهي خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام) باعتبارها خطابا حجاجيا غايته الدعوة والإقناع بضرورة الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والعقيدة، والتشبيه الموجود في خطب الجهاد كله تشبيه حجاجي غايته التأثير والإقناع .

الكلمات المفتاحيه: الإمام علي (عليه السلام) – خطب الجهاد – الجهاد والحجاج – التشبيه الحجاجي – الحجاج

Abstract

The conclusion of the analogy is the great and clear impact in the depiction of abstract objects with realistic sensory images that come to life capable of approximating the meaning and clarifying the image in contrast, and in addition to the ability of the analogy in imparting an aesthetic feature to the discourse that attracts the reader, it carries a great persuasive pilgrimage energy that makes the discourse tend towards the direction of influence and persuasion, by attracting minds to meanings different from the abstract meaning of the subject so as to approximate the image, The analogy also has a great ability to generate the significance and composition of texts in the recipient and thus to make an impact and persuasion. In order to study the analogy with his pilgrimage image and to follow his persuasive path in the discourse, I applied it by analysis to Mubarak›s text from the texts of the people of the House of Prophethood (peace be upon them), namely the sermons of jihad by Imam Ali (peace be upon him) as a pilgrimage discourse whose purpose is to preach and persuade the need for jihad for the sake of Allah and the defense of religion and belief, and the analogy found in the sermons of jihad is all a pilgrimage analogy whose purpose is to influence and persuade

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونسأله التوفيق فيما نأتي ونذر، وصلى الله على نبينا محمد أمين الله على رسله، وعزائم أمره، الخاتم لما سبق، والفاتح لما استقبل، والمهيمن على ذلك كله، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد..

يُعد الحجاج عنصراً هامًا من عناصر النظرية التداولية، لما له من أهمية فعالة في صياغة الخطاب بأسلوب إقناعي قادر على التأثير في المقابل بغية إقناعه بفحوى الخطاب، فقد كانت غاية النظرية الحجاجية تدور حول المتلقي لأجل تحقيق التأثير والإقناع فيه واستمالته لما يعرض عليه من خلال أساليب وآليات حجاجية إقناعية.

لقد برزت أهمية الحجاج في الدراسات العربية القديمة والحديثة، فقد شرع أغلب الباحثين لدراسته وتطبيقه على النصوص والخطابات، وقد شاع استعماله منذ البدء في الدفاع عن المذهب والعقيدة وفي الانتصار للآراء واختلاف وجهات النظر وشاع أيضاً استعماله بين القادة والخطباء لجذب الناس والتأثير فيهم، لذا فقد ابتعد الحجاج عن دراسته بضمن الفلسفة وصار يعمل في مجال البلاغة والدلالة لقدرته على تكوين دلالة النصوص لدى المتلقي، فقد كان في البدء متداخلًا مع مفهوم الجدل إلى إن أصبح مستقلًا عنه بفضل أدوات تحليل الخطاب التي يتمتع بها من خلال الآليات والأساليب الإقناعية التي تكون قادرة على إبعاد أي شك أو ريب أو إنكار من خلال المنطق والعقل لكي يصل إلى غايته المنشودة في تقوية حجة الخطاب وبرهانه.

ومن الأساليب البلاغية التي زجت البلاغة مع الحجاج أسلوب التشبيه الذي يعنى بتقريب المعنى

الى ذهن السامع من خلال التصوير بمعاني حسية من الواقع قادرة على تجسيد وتثبيته، وبذلك يكون التشبيه له قدرة كبيرة على التأثير والإقناع فهو يحمل طاقة حجاجية إقناعية كبيرة اكثر منها جمالية، وبالتالي له القدرة على توليد دلالة النصوص وتكوينها لدى المتلقي.

أما هذا البحث فقد اختير لتقصي وتحليل صور التشبيه الحجاجي المختلفة الواردة في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام) فكان على مبحثين: الأول في خطب الجهاد والحجاج واشتمل على مطلبين: الأول خطب الجهاد (المفهوم والمناسبة) والثاني في مفهوم الحجاج لغة واصطلاحاً، أما المبحث الثاني فكان لتقصي وتحليل صور التشبيه الحجاجية التي سعى الإمام من خلالها إلى إقناع المقاتلين بضرورة الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والعقيدة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لأستاذتي الدكتورة تغريد الخفاجي التي ساعدتني طيلة فترة الكتابة، ومن الله التوفيق.

الباحث

المبحث الأول: خطب الجهاد والحجاج

المطلب الأول: خطب الجهاد (المفهوم والمناسبة)

خطب الجهاد هي خطاب لغوي موجه لقوم أو أقوام بعينهم تحكمه بنية لغوية معينة لأجل دعوة الناس إلى القتال والجهاد في سبيل الله بواسطة أدلة وحجج وبراهين إقناعية مضمرة أو ظاهرة داخل السياق اللغوي، أو هي الخطب التي قيلت في الحروب والمعارك في الدعوة الى الجهاد في سبيل الله ولرفع معنوية الجيش وشد عزيمتهم، وتأتي لتبليغ الناس بضرورة الجهاد لأجل الدفاع عن الإسلام والعقيدة والأهل، وتبليغهم بعواقب ترك الجهاد وما سيؤول إليه أمرهم إذا تقاعسوا وتخاذلوا عن الجهاد.

إن الغاية المرجوة من الخطب الجهادية هي الدعوة الى القتال والاستعداد له في الأمور المادية والمعنوية وتنظيمه، وبث الروح الجهادية بين المسلمين، والحث على القتال، حيث كان الجهاد من أكبر أسباب انتشار الإسلام وارتفاع رايته وهو من أعظم القربات إلى الله تعالى.

فهي خطاب حجاجي موجه إلى فرد أو مجموعة من الناس تحكمه بنية لغوية مدعومة بالأساليب والآليات الإقناعية التي تعمل على استمالة المتلقي لما يعرض عليه من أفكار وأطروحات والتأثير فيه بواسطة الخطاب الجهادي الحجاجي.

وبناءً على ذلك فإن كل خطاب أو قول يشجع الناس على الجهاد ويثبت القلوب عليه، وكل قول يؤدي إلى الاستعداد والاستبسال للقتال في سبيل الله، يدخل في باب الخطاب الجهادي لأنه دعوة إلى القتال الجهادي قبل أن تقع وأيضا يدخل تحت مسمى الدعوة الدينية.

تُعد خطب الجهاد من الموضوعات الأم التي ارتكزت عليها الخطابة بصورة عامة منذ بداية الإسلام، وتفرعت من خلالها موضوعات وخطب أخرى كانت في مسار الخطب الجهادية، ومنها وعظ الناس والدعوة إلى الزهد في الدنيا والالتزام بمبادئ الدين الحنيف، والدعوة إلى حقن الدماء بين المسلمين و الطوائف الأخرى.

وهذه الخطب الجهادية مستندة إلى أدلة وبراهين وحجج قوية ومؤثرة بحيث تبلغ مداها من الإقناع عند المقابل، ومن وسائل الإقناع في هذه الخطب: إيراد مثل من الأمثال أو حكمة أو ذكر موقف تاريخي مؤثر، أو الاستشهاد غالبا بآيات من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، كذلك تحمل خطب الجهاد في طياتها معاني وكلمات مثيرة تلهب الحماس وتثير العواطف ما يبعث في نفوس

المقاتلين من الاستعداد والتأهب للقاء العدو.

ومن المناسبات التي قيلت فيها الخطب الجهادية و العسكرية:

- الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله.
- رفع الروح المعنوية وشد عزيمة المقاتلين.
- التوجيهات العسكرية والقتالية للمقاتلين.
- الدعوة إلى حقن الدماء بين المسلمين.
- الدعوة إلى دفع الخطر عن الأهل والمذهب والعقيدة عند مواجهة أي عدو.
- الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام وما جاء به الرسول محمد (صل الله عليه واله).
- توبيخ وزجر المتخاذلين والقاعدين عن الجهاد والتذكير بضرورة الجهاد وعواقب تركه.

المطلب الثاني: الحجاج لغة واصطلاحا:

الحجاج لغة: يمكن معرفة الأصل اللغوي للحجاج بالرجوع إلى المعاجم اللغوية والتي يمكن من خلالها معرفة هذا النشاط الإنساني الذي استعملت فيه اللغة كوسيلة من وسائل التواصل بين الجماعات؛ إذ ورد في معجم لسان العرب لابن منظور(ت٧١١هـ) قوله في ماده (حجج): «حاججته: أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والحجة هي البرهان أو ما دوفع به الخصم وتجمع الحجة على حجج، ويقال حاجَّه محاجَّة وحجاجا؛ أي نازعه الحُجَّة، والتحاجّ هو التخاصم، والرجل المحاجّ هو الرجل الجدل، والاحتجاج: من احتجّ بالشيء أي اتخذه حجة، ويقال أنا حاججته، فأنا محاجّه وحجيجه أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان «.[1]

كذلك ورد مفهوم الحجاج اللغوي في مختار الصحاح أن: «الحجة هي البرهان، وحاجَّه فحجَّه من باب رد؛ أي غلبه بالحجة، وفي مثل لجَّ فحجَّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جّدِل والتحاجّ التخاصم، والمحَجَّة

بفتحتين جادة الطريق «.[٢]

فنلحظ من خلال التعريف اللغوي والمعجمي لمصطلح الحجاج أنه: جمع حجة، ومصدر من (حاجج) ويكون على وزن (فاعل) أي دالّ على المشاركة بين اثنين أو أكثر من ذلك، فنلحظ أن مصدر هذا الفعل يدل على النزاع والمغالبة من أجل كسب الآخر للنتيجة المرجوة، وهو مرادف للجدل.

الحجاج اصطلاحا:

لقد تعددت تعريفات الحجاج بحسب استخدامه ووجهة نظر الباحثين ومنها:

الحُجَّة في تعريف الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ): "ما دل به على صحة الدعوى وقيل الحجة والدليل واحد".[٣]

من المفكرين العرب المحدثين الذين درسوا موضوع الحجاج طه عبد الرحمن بوصفه من أبرز الآليات اللغوية التي يستخدمها المرسل لإقناع المقابل، فقد عرف الحجاج بأنه: «هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوة مخصوصة يحق له الاعتراض عليها «[٤].

وإما الحجاج عند الغربيين فقد عرفه بيرلمان بأنه: دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم لما يعرض عليه، أي إن وظيفته هي محاولة جعل العقل يسلم لما يعرض عليه من أفكار وأطروحات وقد يزيد في درجة ذلك التسليم، سواء كان المتلقي فرد أم مجموعة.[٥] وهذا التعريف هو المتبع في دراسة وتحليل خطب الجهاد في هذه الرسالة.

إذن فاللغة هي الوسيلة التي يستخدمها المحاجج لإحداث التأثير والإقناع واستمالة المخاطب.

ويعرف الحجاج بأنه: «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الأخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها «[٦] إذن فإنَّ الكلام

السابق يؤيد بأنَّ الحجاج هو عبارة عن حجج تؤدي إلى نتائج مرتبطة بها.

أما وظيفة الحجاج فهي: «ترتد إلى طرح الحجج التي تضمن النفاذية للخطاب، وبالنتيجة حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة، وهذا يعني توظيف الآليات التي تجتاز الاعتقاد الأولي نحو التغيير وبناء موقف مغاير «[٧]. فالعملية الحجاجية لا يمكن أن تتم دون أن تكون هناك أدوات ناقلة للحجج، وهي بمثابة مقدمات تنقل بواسطتها الحجج نحو الظروف المحيطة بالنص وتحويل الخطاب إلى واقع.

وتأسيسا على ما سبق فإن الحجاج يمثل مصطلحًا لغويًا حديثًا متداخلًا مع مجموعة من العلوم بوساطة بنية لغوية خطابية تحمل مجموعة من الأساليب والآليات الإقناعية التي تعمل على استمالة المخاطب لما يعرض عليه من أفكار وأطروحات بوساطة أدلة وبراهين ظاهرة ومضمرة داخل السياق اللغوي لأجل جذب الانتباه والتأثير في المتلقي.

المبحث الثاني: حجاجية الصورة التشبيهية

التشبيه لغة: هو «التمثيل، والشَبهُ، والشَبهْ، والشَبيهُ: المثيل،والجمع أشباه، وأشبه الشيءُ الشيءَ ماثله «.[٨]

أَما التشبيه اصطلاحا فقد تجلّى مفهومه عند البلاغيين من إيحاءات المعنى اللغوي، ومن ذلك تعريف عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) في أَسرار البلاغة: بأن تثبت للمشبه معنى من معاني المشبه به او حكما من أحكامه[٩]، بواسطة أداة من أدوات التشبيه كالكاف ونحوها، أي التماثل بينهما عن طريق عقد مقارنة بين طرفين لاشتراكهما في صفة من الصفات، أو حال من الأحوال.[١٠]

و عند الخطيب القزويني (٧٣٩هـ): " هو الدلالة على مشاركة أمر لأخر في معنى، والمراد به هنا هو ما لم

يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية ولا التجريد ". [١١]

اما وظيفة التشبيه داخل الخطاب فهي «تقريب المعنى الى الذهن بتجسيده حيا، ومن ثم فهو ينقل اللفظ من صورة إلى صورة أخرى على النحو الذي يريد المصور، فإن أراد صورة متناهية في الجمال والأناقة شبه الشيء بما هو أرجح منه حسنا، وإن أراد صورة متداعية في القبح والتفاهة شبه الشيء بما هو أردأ صفة «. [١٢]

وهذه المهمة هي التي أدخلت التشبيه الى ميدان الحجاج والإقناع، وجعلته من ضمن الحجج المؤسسة لبنية الواقع، اي التي تربط الحجج بالواقع، لكنها لا تتأسس عليه و لا تنبني على بنيته، إنما هي تؤسس هذا الواقع وتبنيه، او هي التي تقوم بإبراز ما خفي من علاقات بين أشيائه، فالخطيب أو الشاعر عندما يشابه بين شيء وأخر إنّما يؤسس لواقع جديد يحمل الفكرة التي يريد إيصالها إلى فكر المتلقي.

يتجاوز التشبيه وظيفته الجمالية وتزيين الخطاب إلى وظيفة أَبعد من ذلك وهي المحاججة والإقناع، إذ يقرب المسافات بين المعاني المجردة والمعاني المحسوسة، وبذلك يجعل العقل يقبل العلاقات القائمة بين الأَشياء، فالمحاجج عندما يورد التشبيه في خطابه، فهو بذلك يريد إيصال وتمكين الفكرة في ذهن المتلقي، من خلال صور بيانية تشبيهية فيكون قد أدرك المتلقي مقاصد المتكلم عن طريق التشبيه بمعاني وصور حسية غير مجردة وبالتالي التأثير فيه وإقناعه بما أريد إقناعه به.

يحمل أسلوب التشبيه طاقة حجاجية إقناعية أكثر منها جمالية، فلّذة القارئ لا تكون في العبارات السطحية والمتعارف عليها بل في العبارات المشعة بالايحاء الذي يدفع القارئ الى محاورة هذه الصورة، والاقتناع بحجج القائل، وهذه إشارة الى القيمة الحقيقية

للتشبيه زيادة على تحقيق الجمالية التي تمتع القارئ وتجعله يترنم مع موسيقى الصورة التشبيهية.[١٣]

ومن هنا نرى كيف يساهم التشبيه في توليد دلالات النصوص وتكوينها، من خلال نقل ذهن المتلقي من صور مجردة إلى صور حسية من الواقع قريبة من وعيه تجسد المعنى وتثبته في نفس المتلقي وتكون أكثر تأثيرا فيه، فتحول بذلك من رسالة فنية إلى رسالة تداولية حجاجية إقناعية أكثر شمولية.

واستنادا على ما سبق سوف يتتبع البحث بالتحليل مصاديق التشبيه الحجاجي في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام) في هذا المبحث، والتي دعا فيها الامام إلى الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والعقيدة. والتشبيه الوارد في خطب الجهاد عند الإمام علي (عليه السلام) كلّه تشبيه حجاجي لأن كلام المعصوم حجة بذاته الغاية منه إيصال الحجة إلى ذهن المتلقي سواء أكان جمهورا حاضرا أم جمهورا على مر العصور والأجيال المتلاحقة، وأغلب ذلك التشبيه الحجاجي الغرض منه الدعوة الى الجهاد في سبيل الله.

ومن ذلك التشبيه الحجاجي خطبة الامام علي (عليه السلام) حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر، فقد حزن عليه حتى رئي ذلك في وجهه وتبيّن فيه، وقام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صل الله عليه واله) وقال: «ألا ان مصر قد افتتحها الفجرة اولوا الجور والظلم.....

وأني قد دعوتكم إلى غياث أخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة، فتجرجرتم جرجرة[١٤] الجمل الأشدق، وتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليس له نيه في جهاد العدو، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب[١٥] كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأف

لكم.....«.[١٦]

في هذه الخطبة وردت ثلاث صور تشبيهية يحتج بها الإمام على أصحابه عند تخاذلهم عن غياث ونصرة إخوانهم من أهل مصر، وأول صورة تشبيهية كانت في قوله (تجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق) حيث شبه الإمام تخاذل أصحابه ومماطلتهم وتقصيرهم عن نصرة إخوانهم وتجرجرهم عن القتال شبهها بجرجرة الجمل الأشدق، والجرجرة هي الصوت الذي يردده البعير في حنجرته عند التعب والإعياء، والأشدق تطلق على الجمل واسع الفم، وهذا التشبيه هو تشبيه مرسل وأداة التشبيه هي المصدر (جرجرة)، وهذه الصورة الرائعة التي شبه بها الإمام أصحابه، نقلتهم من التفكير بالصورة المجردة إلى معنى حسي من الواقع لكي يبلغ الحجاج والإقناع مداه عندهم.

والصورة التشبيهية الثانية في هذه الخطبة قوله (عليه السلام): (تثاقلتم إلى الارض تثاقل من ليس له نية في جهاد العدو)، حيث شبه الإمام تثاقل أصحابه في الأرض عن نصرة أخوانهم كتثاقل من ليس لديه نيه في الجهاد أياً كانت نيته مضطربة وغير سليمة ولا يريد الجهاد في سبيل الله البتة، وأراد الإمام من خلال هذه الصورة إيصال فكرة إلى أصحابه بأنهم لا يريدون الجهاد وليس لهم نيه في ذلك لكي يحتج عليهم ويحفزهم إلى الإقتناع بتلك الفكرة وضرورة القتال.

وأيضا هناك تشبيه ثالث في هذه الخطبة في قوله (ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) حيث وصف الإمام خروج بعض المقاتلين إليه من الجند بقوله(جنيد متذائب) أي مضطرب في مشيته شبههم بالذي يساق إلى الموت وهو ينظر أي تكون مشيته مضطربة وبطيئة وليس له نية في الذهاب مستمداً

من قوله تعالى {يجادلونك بالحق بعدما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون }[١٧]. أي أنهم كارهين للقتال ولقاء العدو.

وبناء على ما سبق في الخطبة من صور تشبيهية تبين إنها اتكأت على عناصر حسية حركية من الواقع بعيدا عن الصور المجردة بفعل مثيرات حركية مثل (تجرجرتم، تثاقلتم) وقد تعاضدت هذه الصور للكشف عن مدى تخاذل وتراجع الناس عن نصرة وإغاثة إخوانهم من أهل مصر، وكانت الغاية من إلقاء هذه الحجة على الناس هي التحريض على القتال ولئلا يلحقهم العار بترك الجهاد في سبيل الله، ليصل الإمام (عليه السلام) من هذه الحجة إلى نتيجة مضمرة لم يصرح بها يمكن أن يستشفها المتلقي من السياق وهي محاولة إقناعهم بالقتال وأن يهبّوا لنصرة إِخوانهم والدفاع عن الشريعة والدين.

ومن الصور التشبيهية في خطب الجهاد خطبة الإمام علي (عليه السلام) عندما أغار النعمان بن بشير على عين التمر، فأمر الناس ان ينهضوا إليه فتثاقلوا، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أهل الكوفة: كلما سمعتم بمنسر[١٨] من مناسر أهل الشام أظلكم، انجحر[١٩] كل امرئ منكم في بيته، وأغلق بابه، إنجحار الضبّ في جحره، والضبع في وجارها».[٢٠]

في هذه الخطبة صورة تشبيهية في قوله (انجحر انجحار الضب في جحره) وهو تشبيه وأداة التشبيه المصدر(انجحار)، فقد شبه الامام (عليه السلام) تثاقل الناس عن القتال وإنجحارهم في بيوتهم بإنجحار الضب في جحره، وهي صورة غاية في الدقة والمعنى لأن الضب يقضي اغلب وقته في جحره ولا يخرج إلا لغرض الأكل، وجحره عميق وضيق تحت الأرض ويمكث فيه طويلا، إذ من

خلال هذه الصورة نقل الإمام ذهن المتلقي من الصورة المجردة إلى التفكير بصورة حسّية من الواقع تقرب له المعنى وتسهم في توليد دلالة النصوص فيؤدي إلى الإقناع بالفكرة المطروحة عليه، فنلحظ الطاقة الحجاجية في الصورة التشبيهية وقدرتها على تغيير أفكار المتلقين وإقناعهم بما أريد إقناعهم به.

ومن صور التشبيه الحجاجي خطبة الامام علي (عليه السلام) في استنفار الناس لقتال معاوية، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه الكريم (صلّى الله عليه وآله) ثم قال: «عباد الله: ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا، وبالذلّ والهوان من العزّ خلفا ؟ او كلما ندبتكم الى الجهاد دارت أعينكم، كأنكم من الموت في سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة[٢١]، فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون؛ لله أنتم ! ما أنتم إلا أسود الشرى في الدعة، وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس.....«.[٢٢]

فنلحظ في هذه الخطبة ورود صور تشبيهية مختلفة التي جاءت بأداة التشبيه المعروفة (كأن)التي تسهم في تقريب الصورة بين المشبه والمشبه به وتجعلهما كالشيء الواحد في قوله (كأنكم من الموت في سكره، وكأن قلوبكم مألوسة، وكأن ابصاركم كمه) ففي الصورة الاولى شبّه الإمام تقاعس وتثاقل الناس عن الجهاد في سبيل الله كأنهم من الموت في سكرة فهو من قوله تعالى: «ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت»[٢٣]، وكذلك من قوله تعالى:» تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت «[٢٤] اي شبههم بالإنسان في آخر لحظات حياته عندما ينازع سكرات الموت وكيف تخرج روحه حيث عبر الإمام بهذه الصورة عن تقاعد الناس وتخاذلهم على الجهاد،

والتشبيه في الصورة الثانية في قوله(كأن قلوبكم مألوسة) أي مخلوطة بمسّ من الجنون فالإنسان عندما يمسّه الجنّ تراه يتخبّط يمينا وشمالا من شدّة الجنون واختلاط العقل، وأيضا شبه أبصارهم بالعمى، فضلا عن ذلك استخدام التشبيه البليغ في قوله (ما أنتم الا اسود الشرى في الدَعَة وثعالب روّاغة)، فقد جاءت هذه الصور التشبيهية متتالية في هذه الخطبة لإعطاء صورتهم الحقيقية فهم أناس يتفيّأون ظلال الكسل وفي الحروب يراوغون في التخلّف عنها، وأيضا من أجل إيقاظ روح الجهاد فيهم فالإمام كان يؤنبهم لكي ينتبهوا لحالهم وما يجري حولهم، فكان لهذه الصور وقعٌ شديدٌ في نفوس السامعين وتعتبر حجة عليهم في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، ففي هذه الصور انتقل ذهن المتلقي من صور مجردة الى صور حسية واقعية جذبت العقول وقربت المعنى لدى السامع وساهمت في توليد دلالة النص ثُمَّ إقناع المتلقي وتغيير أفكاره.

و من أمثلة التشبيه الحجاجي خطبة الإمام علي (عليه السلام) عندما أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار وقتل عامل الإمام عليها وهو حسان بن حسان البكري، فخرج الإمام علي (عليه السلام) حتى أتى النخيلة واتبعه الناس فرقي رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صل الله عليه واله وسلم) ثم قال: " إما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة.....وان قلت لكم أغزوهم في الصيف قلتم هذه حمارة [٢٥] القيض انظرنا ينصرم الحر عنا، فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون؛ فأنتم والله من السيف افر !يا أشباه الرجال ولا رجال!

وحلوم الأطفال، [٢٦] ويا عقول ربات الحجال، لوددت إني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرّت

ندما وأعقبت سدما.....».[٢٧]

ومن خلال مسار الخطبة نلحظ ورود تشبيهات حجاجية في قوله (يا أشباه الرجال ولا رجال، وحلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال) إذن فهناك ثلاث صور تشبيهية وردت في هذا القول أوردها الإمام (عليه السلام) لتكون حجة على أصحابه في الحث على الجهاد وذم القاعدين على القتال في سبيل الله وأيضا توبيخا لهم، فقد شبههم الإمام بأشباه الرجال اي المتشبهين بالرجال وليسوا رجالاً اي أنهم رجال في الصورة والخلقة ولكن لا يحملون صفات الرجال من الغيرة والحمية والشجاعة والفتوه وشبههم ايضاً بحلوم الأطفال اي ان عقولهم كعقول الأطفال الذين لا يفقهون شيئا من أمور الحياة " ولم يرو المبرد في نسخته (حلوم الأطفال) وروى عوضها (يا طغام الأحلام) وقال: الطغام: من لا معرفة عنده، ومنه قولهم (طغام أهل الشام) "[٢٨] حيث لا يمكن للإنسان أن يسير دون معرفة فكل حركة أو سكنة تحتاج إلى معرفة، وشبه عقولهم بعقول ربات الحجال اي العرائس المخدرات في البيوت وأفاد بعدم كفايتهم لتدبير الحرب من جراء تخاذلهم هذا؛ لذلك تعد حجه التشبيه هذه التي أوردها الإمام في هذا القول من الحجج المهمة التي تؤدي إلى تغيير أفكار السامعين من خلال بيان حال المتخاذلين، وهذا يؤدي الى شحذ الهمم وإقناع الناس المتخاذلين عن القتال والجهاد في سبيل الله بضرورة القتال والدفاع عن النفس؛ فقد نقل الإمام ذهن المتلقي من صور مجردة إلى صور حسية أكثر تأثيرا في الواقع، وهذه تعدّ حجّة إقناعية شديدة اللهجة عليهم لأننا كثيرا ما نصادف أشياء نجد أنفسنا مضطرين إلى تقويم تلك الأشياء انطلاقا من معاني أخر.

ومن مصاديق التشبيه

الحجاجي في خطب الجهاد خطبة الإمام علي (عليه السلام) بصِفّين في التحريض على القتال، فقال: «إن الله عزّ وجلّ قد دلّكم على تجارة تنجيكم من العذاب، وتشفي [٢٩] بكم على الخير إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله؛ وجعل ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، فأخبركم بالذي يحب فقال: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بنيان مرصوص). فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص «.[٣٠]

تأتي هذا الخطبة في سياق الدعوة إلى الجهاد وتبيين ما للمجاهدين من ثواب ومنزلة عند الله عزّ وجل وأيضا التوجيهات العسكرية للمقاتلين، فقد وردت صورة تشبيهية في قوله (فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص) وهو تشبيه مرسل يتكون من المشبه والمشبه به واداة التشبيه، إذ اراد الامام (عليه السلام) من خلال هذه الصورة التشبيهية أن يوصي أصحابه والمقاتلين معه بأن يكونوا صفاً واحدا كالبنيان المرصوص كي لا يخترقهم العدو بسهولة وينفذ إلى داخل الجيش ويكونوا جنبا الى جنب في القتال بحيث يكوّنوا قوة واحدة وتكون لهم هيبة وصولة ترعب الأعداء وهذه تعتبر حجة الامام على اصحابه لكي يلتزموا بها في القتال مستندا الى قوله تعالى " إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص "[٣١] ومن صفات البناء المرصوص انه يكون متراصفاً ومتشابكاً بشكل قوي ومتماسك بحيث لا يمكن أن ينفصل عن بعضه بسهولة، فقد اراد الامام نقل ذهن المتلقي من الصورة المجردة الى التفكير بصورة حسية من الواقع بحيث تقرب له المعنى المجرد؛ فيتحول عنده إلى معنى حسي يؤدي الى الاقناع والتأثير به..

كذلك نرى التشبيه الحجاجي

واضحاً في خطبة الإمام علي (عليه السلام) لما نزل بالنخيلة وآيس من الخوارج، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: فانه من ترك الجهاد، وادهن في امره، كان على شفا هلكة، إلا ان يتداركه الله بنعمه،..... والله لو ولّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل «.[٣٢]

هناك صورة تشبيهية حجاجية في قول الامام (والله لو ولّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل)، فقد شبه الإمام إعمال أهل المغرب إذا ولّوا على الناس بأعمال كسرى وهرقل لما لهم من أعمال شنيعة قاموا فيها بحق المسلمين في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) وكسرى هو ملك الفرس وهرقل ملك الروم، حيث ألقى على الناس من خلال التشبيه حجة تاريخية قوية ومعروفة لدى الكثير من جراء تخاذلهم عن الجهاد، وهذه الحجة بثت الخوف والرهبة في قلوب الناس لكي يقتنعوا بضرورة القتال والجهاد في سبيل الله والدفاع عن أنفسهم بواسطة بدافع حسي واقعي وتاريخي لتقريب الصورة وتثبيت المعنى لدى السامع.

ومن التشبيهات الرائعة في خطب الإمام علي (عليه السلام)عندما انتدبه قومه وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم في حرب صفين، وقد مس أعداءهم القرح والهوان فتقدّمهم الامام علي (عليه السلام)منقطعا على بغلة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) الشهباء وهو يقول: [٣٣]

دبّوا دبيب النمل لا تقوتوا. واصبحِوا بحربكم وبيتوا

حتى تنالوا الثأر او تموتوا أو لا فإني طالما عصيت

قد قلتم لو جئتنا فجيت. ليس لكم ما شئتم وشيت

بل ما يريد المحيي المميت.

اورد الامام عليه السلام صوره تشبيهيه لتحفيز القوم في بداية قوله في

عبارة (دبّوا دبيب النمل) وهو تشبيه أداته المصدر(دبيب)، فقد أمر الامام اصحابه بالتحرك والاستمرار في قتال العدو وشبه حركتهم بدبيب النمل وهو امر متبوع بحُجّة عليهم، والمعروف أن دبيب النمل يكون بصوره خفّيه هينة لا يسمع له صوت اي ان يكون قتالكم وحركتكم بهذه الصورة، فقد نقل اذهانهم من سوره الحركة المجردة إلى صورة حسية من الواقع متمثلة بدبيب النمل، وهذه تعتبر حجّة عليهم من خلال توجيهات القتال العسكرية.

ومن أمثلة التشبيه الحجاجي خطبة الإمام علي (عليه السلام) عند استنفار بني تميم أياما يستنهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي[٣٤]، ويرد عادية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يجبه أحد فخطبهم وقال: «أليس من العجب أن تنصرني الأَزد وتخذلني مضر ؟ وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي، وخلاف تميم البصرة علي، وأن أستنجد بطائفة منها تشخص الى أخوانهم فتدعوهم إلى الرشاد، فإن أجابت وإلّا فالمنابذة و الحرب، فكأني أخاطب صما بكما لا يفقهون حوارا ولا يجيبون نداء.....».[٣٥]

نلحظ الصورة التشبيهية في قوله(فكأني أخاطب صّما بكما لا يفقهون حوارا)، فقد شبه الامام تقاعس بني تميم عن نصرته وتخاذلهم كالصم البكم الذين لا يسمعون ولا يتكلمون، وهي حجة تشبيهية زجر الإمام بها هؤلاء الناس ووّبخهم لعدم تحلّيهم بصفات الرجال الشجعان فقد جبنوا عن دفع الخطر ومقاتلة العدوّ وذلك بسبب الخوف وحب الدنيا، فهذه الصورة التشبيهية كانت اشد وقعا في نفوسهم من أيّ صوره أخرى وأثرّت فيهم أيما تأثير وهذه هي الغاية المرجوة من ايراد التشبيه الحجاجيّ في الخطاب الذي اسهم في توليد دلالة النص وتقريب المعنى وتجسيده.

الخاتمة:

وبناء على ما سبق من أمثلة التشبيه المختلفة في خطب الجهاد نلحظ جملة من النتائج:

١) إنَّ التشبيه يحمل طاقة حجاجية إقناعية أكثر منها جمالية تعنى بزخرفة اللفظ وتجميله.

٢) إن التشبيه ينتقل بالسامع من الصور المجردة إلى صور حسية من الواقع قادرة على تقريب المعنى وتغيير الأفكار بما يريد المتكلم من خلال ايراد صور تشبيهية حجاجية تحمل معاني عميقة مشعة بالإيحاء؛ لأن لذّة القارئ لا تكون في العبارات السطحيّة بحيث لا تجذب الانتباه بشكل كبير مثل المعاني المضمرة داخل السياق.

٣) إن التشبيه أصبح من أهم الآليات الحجاجية التواصليّة القائمة على إثبات الحجج وتبريرها فضلا عن أنها تُعنى بالإقناع بما يريد المتكلم وتقرب المعنى لدى المتلقي زيادة على تحقيق الجمالية في الخطاب التي تمتع القارئ وتجعله يترنم مع موسيقى التشبيه، ويسهم في توليد دلالة النصوص وتكوينها.

الهوامش:

١- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي: مادة (حجج).

٢- مختار الصحاح، للرازي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٧، مادة حجج: ١٢٢-١٢٣.

٣- التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، تح: ابراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ: ١١٢.

٤- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨: ٢٢٦.

٥- ينظر: علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تون فان ديك، ترجمة سعيد حسن بحيري: ٢٣٤.

٦- الحجاج في اللغة، د. ابو بكر العزاوي، بحث ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته): ١/ ٥٧.

٧- البيان الحجاجي واعجاز القرآن الكريم، سورة الأنبياء أُنموذجا، عبد الحليم بن عيسى، مجلة التراث العربي، العدد ١٠٢، ٢٠٠٦، دمشق: ٣٧.

٨- لسان العرب: مادة (شبه): ٧/ ٨٠١.

٩- ينظر: أَسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قراءة: محمود محمد شاكر، دار الفارابي بجدة: ٧٨.

١٠- ينظر: البلاغة الواضحة (البيان والمعاني والبديع)، علي الجارم ومصطفى امين، ط٧، دار المعارف بمصر: ٢.

١١- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني: ٢١٧.

١٢- أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، لبنان، بيروت، ١٩٩١: ٨٧.

١٣- ينظر: حجاجيّة التشبيه عند النقاد العرب القدامى، تركي محمد، مجلة اتحاد الكتاب العرب، ع ٣٢، ٢٠١٤: ١٣٢.

١٤- الجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته واكثر ما يكون ذلك من

الاعياء والتعب.

١٥- جنيد: تصغير جند، متذائب: مضطرب، ومنه سمي الذئب ذئبا لاضطراب مشيته.

١٦- تاريخ الطبري: م٦ / ٦٢.

١٧- سورة الانفال: اية ٦.

١٨- منسر: قطعة من الجيش تمر أمام الجيش الكبير.

١٩- من انجحر الضب: اي دخل جحره.

٢٠- تاريخ الطبري: م٦/ ٧٧.

٢١- من الالس: وهو الجنون واختلاط العقل.

٢٢- تاريخ الطبري: م٦/ ٥١.

٢٣- سورة محمد: اية ٢٠.

٢٤- سورة الاحزاب: اية ١٩.

٢٥- حُمارّة: شدة الحر.

٢٦- حلوم الأطفال: عقول الاطفال.

٢٧- نهج البلاغة: ج١/ ٩٠-٩٢.

٢٨- شرح ابن ابي الحديد: م١أج٢: ٧٩.

٢٩- أشفى على الشيء: أشرف عليه.

٣٠- وقعة صفين: ٢٣٥.

٣١- سورة الصف: اية ٤.

٣٢- المصدر نفسه: م٦/ ٤٤.

٣٣- وقعة صفين: ٤٠٣.

٣٤- هو العلاء بن عبد الله بن عماد بن اكبر بن ربيعة الحضرمي أولد بمكة وكان من قادة جيش معاوية وتوفي في أرض بني تميم.

٣٥- جمهرة خطب العرب: ٤٣٧.

المصادر والمراجع

١- اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١او ٤٧٤هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر،الناشر مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، بجدة، ط١، ١٤١٢هـ.

٢- اصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، لبنان، بيروت، ١٩٩١.

٣- الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن بن جلال الدين، وضع هوامشه: أبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤- البلاغة الواضحة (البيان والمعاني والبديع)، علي الجازم ومصطفى امين، ط٧، دار المعارف بمصر.

٥- البيان الحجاجي واعجاز القرآن الكريم، سورة الأنبياء أُنموذجا، عبد الحليم بن عيسى، مجلة التراث العربي، العدد ١٠٢، ٢٠٠٦، دمشق.

٦- تاريخ الطبري، تاريخ الامم والملوك، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري (٢٢٤_ ٣١٠هـ)، تحقيق: اياد بن عبد اللطيف بن ابراهيم القيسي، دار ابن حزم.

٧- التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، تح: ابراهيم الإيياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٨- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١أد.ت.

٩- الحجاج في اللغة، د. ابو بكر العزاوي، بحث ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته)، ط١أ المغرب، ٢٠٠٦م.

١٠- حجاجية التشبيه عند النقاد العرب القدامى، تركي محمد، مجلة اتحاد الكتاب العرب، ع ٣٢، ٢٠١٤م.

١١- القرآن الكريم.

١٢- لسان العرب، ابي الفضل جمال

الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ)،دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

١٣- لسان العرب، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١هـ)،دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

١٤- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م.

١٥- مختار الصحاح، للرازي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.

١٦- نهج البلاغة، للشريف الرضي، شرحه الشيخ محمد عبده، دار انتشارات لقاء، قم، ايران، ط١، ٢٠٠٤م.

١٧- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري ت (٢١٢هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٨٢م.